

الآفاق الرمزية للحلم وخلفياته النفسية

نحو منهجية علمية لتفسير دلالات الحلم ورمزياته

جان كلود فيلو

ترجمة : علي أسعد وطفة

يؤكد علماء النفس على أهمية الأحلام في تفسير الحياة النفسية ويعلنون أن تفسير الأحلام هو الطريق الأفضل إلى معرفة خفايا النفس الإنسانية. فالأحلام انعكاس لعمليات ذهنية متخفية، ولهذا فإن علماء النفس يعطون أهمية كبيرة للتداعيات الحرة ويتركون لها حرية الانطلاق من أجل الحصول على معلومات خاصة بعناصر الحلم التي يمكنها أن تساعد على إدراك المضمون اللاشعوري للحلم. فمن أجل تفسير حلم ما فإن الشيء الأول الذي يجب أن نقوم به يكون في إيجاد العلاقة بين الحلم وموضوعه. ومما لا شك فيه أننا نشاهد رموزا كثيرة داخل الحياة الحاملة. ولكن هذه الرمزية تتبدى كنتاج لتجربة التحليل ومن خلال المعالجة وفقا لمبدأ التداعي لا يمكنها أن تؤدي إلى تفسير مؤكد يرتبط عمليا بهذه التقنية نفسها.

ويمكن لنا أن نستعرض مثلا بسيطا لهذه المنهجية ولهذه النتائج، وهو مثال مستعار من فرانك Frank⁽¹⁾ الذي يروي الحادثة التالية : جاءت إحدى صديقاته لزيارته، وروت له أنها شاهدت حلما مفاده أنها خنقت كلبا صغيرا أبيض، وقد عبرت عن دهشتها من هذا الحلم وطلبت منه تفسيراً لذلك. ومن منطلق ارتباط المسألة بقتل الحيوانات قالت السيدة بأنها تحب كثيرا أن تعالج أمور المطبخ وهي تضطر غالبا بحكم عملها هذا أحيانا إلى ذبح الدجاج والأرانب، ومع ذلك فهي لا تحب هذا العمل وتؤديه بسرعة خاطفة ما أمكن لها ذلك. وهنا تلاحظ السيدة أنها أثناء الحلم خنقت الكلب بنفس الطريقة التي تخنق فيها الطيور في المطبخ. وهذه الملاحظات أدت إلى إدراك عميق لجوهر السبب الحقيقي لهذا الحلم. سألهما فرانك ما إذا كانت تشعر بالحقد تجاه شخص ما ؟ وعندها أشارت السيدة إلى سلفتها التي تحاول دائما أن تفرّق بينها وبين زوجها وتحاول أن تجعلها في حالة خلاف معه، وأضافت السيدة أنها منذ عدة أيام سابقة للحلم نشب خلاف بينها وبين سلفتها إلى حدّ أن السيدة طردت سلفتها وأغلقت الباب في وجهها قائلة لها: اخرجي من هنا لا أريد في بيتي كلبا يعضني.

وبعد ذلك وعلى أثر هذه المعطيات استطاع فرانك أن يفك رمزية هذا الحلم. فالحلم يحدث أليا وذلك من خلال صورة متخيلة لسلوك عدواني، ولكن هذه العدوانية تتمحور حول موضوع ليس له علاقة حقيقية بالمسألة: وهي العبارة التي نطقت بها السيدة لطرد سلفتها عندما قالت لها لا أريد في بيتي كلبا يعضني، فالكلب غالبا ما يكون أبيضاً وفي بياض الكلب الأبيض يكمن سرّ الحلم. فكيف ذلك؟ فالكلب هنا يرمز إلى السلفة وفعل الخنق إلى رغبة عدوانية ضد سلفتها. والسؤال هنا لماذا أخذ الحلم هذه الصورة وما العلاقة بين الخنق والسلفة والكلب واللون الأبيض.

1- Cité par Dalbiez, La méthode psychanalytique et la doctrine freudienne , Desclée de brouwer.

من أجل تفسير وجهي الحلم الوجه الظاهري والوجه الدلالي، يميز الباحثون بين ما يظهر منه وبين الأفكار الأساسية الكامنة. وبعبارة أخرى بين المحتوى المعلن والمحتوى الكامن، ففي المثال السابق يشير فعل خنق الكلب إلى الشكل المعلن، ولكن الرغبة في الانتقام الموجه ضد السلفة تشكّل الفكرة الأساسية المضمرة فالمحتوى المعلن يمثل المضمون المتقر، ويأخذ مكانه في سياقه التعبيري. فالسيدة تخنق الطيور البيضاء غالباً في المطبخ وهذا عمل مشروع مع أنه يثير فيها الاشمئزاز (محتوى معلن). ولكن توجد لديها كراهية ورغبة في الاعتداء على سلفتها وهذا أمر غير مشروع (محتوى كامن لا شعوري). وهي عندما أطلقت على سلفتها تسمية كلب يعرض عندما قالت لها: لا أريد في بيتي كلباً يعرضني ربط اللاشعور لديها بين صورة الكلب الأبيض الذي يرمز إلى السلفة وعملية الخنق للطيور في المطبخ لكي تبدو الصورة مقبولة إلى حد ما.

وبصورة أكثر عيانية يرى الباحثون أن الرغبات اللاشعورية، التي تختمر داخل العمق النفسي، مع ما يواكبها من انفعالات وذكريات، تشكّل المضمون الخفي للحلم. ويعتقدون من جهة أخرى بأن الغرابة التي تتميز بها الأحلام تجد تفسيراً لها من خلال الوظيفة الأساسية المتشابهة لهذه المظاهر المرضية للعصاب أي أنها تشكّل اتفاقات أو اندفاعات لاشعورية داخل الشعور.

الحلم والرغبة :

يجري الاتفاق على أن حلم اليقظة يهدف دائماً إلى تحقيق رغبة ما، قد تكون خيالية أو ممكنة، وذلك ينسحب على الحلم العادي. ويتضح من خلال التحليل ومنهج التداعي بأن الحلم يشكّل محرك رغبة تتوغل في عمق البنية النفسية للفرد. وتبدو أحلام الأطفال بالغة الوضوح في هذا المسار فهي تحقيق عفوي للرغبات والميول اليومية التي لم تحقق إشباعاً كاملاً. وهي في هذا السياق لا تعبر عن

علاقة رمزية بين المضمون المعلن والمضمون الكامن. ويمكن القول في هذا الخصوص أن هناك تكاملاً وانسجاماً بين المضمونين في هذه الحالة.

ويلجأ علماء النفس إلى أحلام الطفولة هذه ليوظفوها كأمثلة حيّة لوظيفة الحلم، لقد طلب من أحد الأطفال أن يقدم سلة مليئة بالكرز إلى شخص آخر على أن يكافأ بالحصول على بعض حبات الكرز لقيامه بالعمل. وفي اليوم التالي حلّم الطفل هارمان بأنه قد التهم جميع الكرزات الموجودة في السلة. هذه الأحلام الطفلية تأتي كرد فعل على أحداث تجري في إطار الحياة اليومية التي تترك عند الطفل إحساساً بالأسى والندم والحزن وتترك لديه رغبات غير مشبعة. والحلم هنا يمكن الطفل من تحقيق مباشر لرغباته وذلك عن طريق تحويل الفكرة إلى حدث مباشر بطريقة التحليل.

ويلاحظ أن بعض أحلام الراشدين تتشكّل وفقاً لنماذج الأحلام الطفلية وهي أحلام تنتمي إلى الفئة الأولى المذكورة سابقاً. وفي هذا المجال يلاحظ أن كتاب الروايات والمغامرات يرسمون أحلام أبطالهم الذين يسقطون جائعين في أماكن موحشة متغيرة بطريقة بارعة. فالمساجين يحملون بالحرية، وعندما تكون لدينا مشاريع تأخذ بمجامع القلب فإننا غالباً ما نحلم بأن هذه المشاريع قد تحققت قبل الأوان. وهناك أمثلة لا حصر لها تصور لنا طبيعة هذه الأحلام.

المكبوت والحلم :

إن تحقق الرغبات بطريقة وهمية حلمية، وحضور طابع الغرابة داخل الأحلام يشير إلى أن الأحلام تعبر عن العمق السحيق للنفس الإنسانية. فالرغبات مدفونة في العمق اللاشعوري، وهذا يعني أن الأحلام في أكثرها رسائل نابغة من عالم اللاشعور.

فالعناصر اللاشعورية المكبوتة نفسيا يجب ألا تصل إلى ساحة الشعور في أية صيغة كانت، وهذا يحدث بالتأكيد في حالة الأعراض العصابية، ولكن هذه الأعراض تتوافق مع تحولات غير طبيعية، أو بالأحرى مع تحولات غير شائعة داخل البنية النفسية، وذلك لأنه وتحت تأثير أسباب عديدة خاصة بالصراعات يحدث خلل في التوازن الطبيعي. فهناك قوى ناهضة للزعات المكبوتة كما يعتقد فرويد قادرة على اختراق الحواجز والوصول إلى ساحة الشعور أو الوعي وذلك من خلال الحلم. وتلك نتيجة طبيعية ومنطقية للنوم: أثناء النوم تتراخى المراقبة وتنخفض طاقة الأنا والقوة النفسية التي تحافظ على وضعية المكبوت العادية. وفي هذه اللحظات تنهز الطموحات اللاشعورية الدفينة والمكبوتة الفرصة أثناء النوم، لتخترق ساحة الشعور ولكن قوة الكبت التي تسجل ضعفا كبيرا تبقى مع ذلك موجودة بحدود دنيا لتمارس بعضا من عملها وفعاليتها.

وبالتالي فإن رقابة الحلم (القوى الواعية التي تراقب وتمنع اندفاعات اللاشعور) هي بقية القوى الكابتة، فهي تمنع الرغبات اللاشعورية من الظهور بصفة مباشرة. يعتقد فرويد أنه وبسبب قوة المراقبة التي تمارس عملها حتى اثناء النوم، ويطلق عليها الرقابة الحلمية، فإن اندفاعات اللاشعور التي تتبدى في الحلم وترتدي ثوب الأحلام (التفكير الحلبي) يتوجب عليها أن تتوخى الحذر وأن تتخفى عن أنظار قوة المراقبة ومن أجل ذلك تتسلل بأثواب وهيئة تساعد على تجاوز قوى المراقبة للوصول إلى ساحة الشعور وهنا تحدث بعض التغيرات والتعديلات في هيئة هذه القوى والتي تجعل الحلم غريبا استثنائيا غير منطقي مفارق للمعاني الموضوعية بحيث يستحيل فهمه ويصعب إدراك دلالاته الحقيقية، لأن القوى اللاشعورية تأخذ طابع التقنع وتظهر على غير صورتها الحقيقية ولا تتبدى بهيئتها أو صورتها الحقيقية وبصفة مباشرة.

ومن هنا يمكن الانطلاق لتفسير الغامض في الأحلام، وهنا تكمن التفسيرات الخاصة بتشوهات الحلم ودلالاته غير المباشرة. فالعناصر الأساسية للحلم في صيغته الخام (الاندفاعات اللاشعورية

المكبوته) تأخذ صيغا تحويلية أكثر براءة تسمح لها بالوصول إلى ساحة الشعور. لقد تحدثنا في مثالنا السابق عن السيدة التي حلمت بقتل الكلب الصغير الأبيض ولاحظنا كيف اكتشف المحلل وجود اندفاعات عدوانية عند السيدة ضد سلفتها، وهي اندفاعات مرفوضة من قبل الحاملة، ولكن هذه النزعة إلى القتل تتخفى في ثياب الحلم وذلك بدلا من الظهور بطريقة مباشرة: فالكلب الصغير يلعب دور الضحية إذ يصعب جدا أن تكون الضحية المنشودة السلفة نفسها. فمن أجل إعادة بناء المادة الحلمية استطاع المضمون الكامن (رغبة قتل السلفة) أن يخرج إلى ساحة الوجود أو الشعور في صورة رمزية حلمية متخفية وبطريقة مجهولة من قبل الشعور نفسه هذه الصورة هي: خنق الكلب، فرقابة الحلم تسمح بخنق كلب ولكنها لا تسمح بخنق امرأة، ولذلك فإن رغبة قتل السلفة هذه تخفت في هيئة رغبة بقتل الكلب الأبيض وهذا أمر تسمح به الرقابة الشعورية والكلب الأبيض هنا رمز جديد للمرأة المرغوب بقتلها: السلفة. لنعد من جديد إلى عبارة المرأة عندما قالت لسلفتها بصورة واعية: لا أريد في بيتي كلبا يعضني: هذه العبارة ارتسمت في ساحة اللاشعور وأصبحت اللفظة رمز للسلفة. وهكذا يتم الربط بين رمزية الكلب والسلفة. بعبارة أخرى يمكن القول بأن صورة السلفة الحاقدة أخذت رمزية جديدة فهي كلب مسعور في وجدان المرأة الواعي واللاشعوري. وهكذا استطاع المضمون الكامن أن يرتدي هذا الثوب: الكلب البيض ليخدع رقابة الضمير. وتبقى الرابطة بين الكلب والخنق البياض فالمرأة تخنق الطيور البضاء والكلب أبيض والكلب حيوان أيضا ففعل خنق الكلب المسعور في منطقتي الشعور أمر مشروع وهو أكثر مشروعية في منطقتي الاندفاعات الحلمية.

فإدراك العلاقة الدقيقة المتخفية بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن يشكّل المنطلق الأساسي

لإدراك وتفهم القضايا الخاصة بعبثية الحلم.

يرفض بعض الأشخاص قطعياً أن تفسر أحلامهم وفقاً لهذه المنهجية ويرفضون بقوة أن تكون أحلامهم صورة لرغبات لاشعورية في موت بعض الأصدقاء والأحبة ! كتبت إحدى المريضات إلى فرويد قائلة "أتجسر حقاً على القول بأنني أريد الموت لزوجي ! إن في هذا بلاهة واضحة ! لقد كَوَّنَا أسرة متكاملة وبالتالي فإن موته يحرمني من كل ما أملكه في هذه الدنيا ". ويقول مريض آخر : كيف تستطيع أن تقول إنني آسفة على إنفاق مبلغ كرسته لأخواتي ومن أجل تربية أخي ؟ إن هذا مستحيل ! فأنا لم أعمل أبداً إلا من أجل عائلتي ولا توجد لي أية غاية أخرى في الحياة غير إنجاز واجبي من أجل أسرتي". هذه الاعتراضات مشروعة إلى حد كبير ولا سيّما في المستوى الشعوري من التفكير، فهي صحيحة من جهة نظر لاشعورية وخاطئة إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الشعورية. وهنا يمكن أن نلاحظ المشقة الكبيرة التي يتجشمها عالم النفس عندما يريد أن يتحدث عن دلالة حلم ومغزاه أي عندما يريد أن يدخل في مجاهل المضامين الكامنة والخفية.

فهناك نزعات لاشعورية، والحالم له كل الحق في أن يعلن بأنه يجهل هذه النزعات وأنه يرفضها في الوقت نفسه. ولكنه مع ذلك لا يحق له أن يعارض إمكانية الوجود اللاشعوري لهذه النزعات. يعرف فرويد في النهاية الحلم بأنه : هو تحقق مُقَنَّع لرغبة مكبوتة لاشعورية وهو لا يعدو في النهاية عن كونه تنفيذاً لرغبة معينه.

مواد الحلم :

تشكّل النزعات اللاشعورية الينابيع الأساسية لصورة الأحلام ويمكن الإشارة إلى مصادر أخرى. لقد عرفنا سابقاً أنه يمكن الاستفادة من الاستثارات الخارجية والداخلية في توظيفات الحلم. ولكن علماء النفس يركزون في هذا المجال على أهمية العناصر ما قبل شعورية هذه التي توجد في الذاكرة القريبة وفي الذكريات والاهتمامات التي تشكّل المواد الأساسية للحلم.

وغني عن البيان أن المضمون الظاهري للحلم يعتمد على أحداث جديدة ومشاريع حديثة واعية، فأكثرية الأحلام تشتمل على عمليات ذهنية تدور أحداثها في ماض قريب. ويطلق فرويد على هذه العمليات بقايا أحداث اليوم. هذا ويمكن لعمليات الاصطفاء الخاصة بالذكريات أن تتدخل في عملية صياغة الحلم وهي بالتالي يمكنها المساهمة في تحليل دلالاته العميقة. وعندما يقع الخيار على مجموعة ذكريات، فإن ذلك يتم على ضوء القرابة التي تشد هذه الذكريات إلى العناصر اللاشعورية. وينسحب الشيء نفسه على الاهتمامات حديثة العهد التي تعطي الفرصة لظهور اهتمامات أكثر عمقا. فالحلم بصورة مبسطة مزيج من مواد مختلفة تتكون بالدرجة الأولى من بقايا الاهتمامات اليومية ذكريات حديثة واهتمامات، ومن دينامية لاشعورية بالغة العمق يطلق عليها فرويد رغبة. ويحدث أن العناصر ما قبل شعورية توظف لإنتاج ما يسمى المضمون المعلن للحلم، وهي في كل الأحوال لا تمثل المضمون الكامن. وإذا حدثت إزاحة الأفكار التي يعبر عنها الحلم فإن ذلك يشير إلى كل ما يريده المرء: تحذيرات، مشاريع. ومع ذلك فإن الحلم يبقى تحقيقا لرغبة لاشعورية: فالحلم ليس مشروعا محدودا أو تنبها قصير المدى بل يمثل وعلى نحو دائم مشروعا أو تحذيرا يُؤلّد - بتأثير رغبة لاشعورية - طريقة تعبير تسعى إلى تحقيق رغبة.

الحلم والجنس :

لقد قاد تحليل الأحلام فرويد في أغلب الحالات إلى إدراك المكونات المختلفة لليبيدو (طاقة الحب) والتي ترتبط بالعقدة الأوديبية، أو بعناصر جنسية أخرى. ومع ذلك فإن فرويد يعترف بأن الرغبات المحركة للحلم ليست بالضرورة رغبات من نسق جنسي، فهناك مجموعة أخرى من الرغبات يمكن أن تكون في أساس الحلم بشرط أن تكون هذه الرغبات مكبوتة في الحدود الدنيا. يقول فرويد في هذا

الخصوص في كتابه "تفسير الأحلام" لا يجب أبداً أن ننسى أهمية المُركَّب الجنسي ولكن لا يجب أن نبالغ إلى حدّ النظر إليه بوصفه يملك تأثيراً نهائياً وبلا حدود. إن القول بأن جميع الأحلام يجب أن تفسر على نحو جنسي مقولة تخالف منطق العلم في تفسير الأحلام.

تتطلب معرفة الدور الذي يؤديه الليبيدو داخل اللاشعور من المحلل أن يبحث عن المحتوى الكامن الجوهري للحلم وذلك داخل المركبات الجنسية. فالميول المكبوتة يمكنها أن تنتهي في إطار هذه الحالة إلى ماضٍ قريب نسبياً كما يمكنها أن تعود إلى المرحلة الطفلية من الحياة. قالت إحدى السيدات لفرويد أنها حلمت بأن ابنتها قد توفيت وهي لم تتجاوز بعد السابعة عشرة من العمر. لقد افترض فرويد أن السيدة كانت قد تمنّت الموت لابنتها في إحدى المرات وذلك على نحو شعوري ثم أصبحت هذه الرغبة لاشعورية لاحقاً فالابنة كانت نتاجاً لزواج بائس انتهى بطلاق بين الزوجين. ولما كانت الأم حامل بطفلتها هذه فهي وعلى أثر مشاجرة مع زوجها بدأت تضرب نفسها ساعية إلى إجهاد نفسها متمنية موت من في أحشائها. وهذه الأحداث القديمة تفسر بوضوح الرغبة اللاشعورية عند الفرد الخاصة بموت أحد الأحبّة أو الأقرباء.

وغالبا ما يعود المحلل النفسي غالبا إلى ذكريات بعيدة جدا وذلك في مرحلة الطفولة وهي المرحلة التي تنتظم من خلالها وعلى نحو لاحق الحياة اللاشعورية للنفس الإنسانية، وهذا يسميه فرويد بالزمن القديم للحلم. ومن هذا المنطلق فإن العقد والمركّبات مثل عقدة أوديب وعقدة الخصاء تمثلان مفتاح الأحلام.

تقول حاملة أخرى أنها شاهدت نفسها على شاطئ البحر وفجأة ترى منزلاً كبيراً في نهاية الشاطئ، ثم تشاهد نفسها وكأنها داخل قارب صغير على مسافة قريبة من المنزل، ثم تبدأ موجات عاتية تحيط بقاربها وبدلاً منها وكأن المنزل يتحرك وكأنه قارب. بعدها تشعر الحاملة بالدوار وذلك لأن القارب يتحرك على منوال المنزل وهي في إطار قلقها هذا تدفع أمها داخل المياه وفي هذه اللحظة نفسها تشعر بأن

القارب بدأ ينساب ويطحرها داخل الماء ثم تصيح طالبة النجدة. وعلى أثر ذلك تشاهد أباهما بين المنقذين ثم يأخذها بين ذراعيه. ثم تسعى إليه صائحة بابا بابا.

لا يتطلب تفسير هذا الحلم مشقة كبيرة : فالعلاقة الحميمة بين الأم وابنتها تنقطع وهي تنادي أباهما. أما فيما يتعلق بالمنزل الكبير والقارب الصغير فإن ذلك يتعلق بذكريات طفولية تخص سرير المهدي داخل غرفة والديها (عقدة أوديب). هذا هو التفسير الذي وصل إليه لافورك Laforgue عبر منهج التداعي.

ويشير الحلم التالي إلى العقدة الأخوية *Complexe fraternel* والذي يتبدى بوضوح كامل. وهو حلم فتاة مفاده أنها كانت تتنزه داخل مدينة حيث كانت الشوارع مزدحمة : "كنت أقول لنفسي هذه هي الحرب التي ستبدأ أو بالأحرى التي تستمر وذلك لأن السلام لم يكن إلا حلما. ولم أكن قادرة على التحمل ثم سألت ما إذا كان أخي قد انصرف إلى الحرب".

نشوب الحرب تتطلب دعوة أخيها إلى الجندية وكان أخوها يحظى بالدلال منذ اللحظة التي وجد فيها في هذا العالم. أما الفتاة الحاملة كانت محرومة من الحنان وتعاني من طفولتها حيث كانت تتعرض لهجمات الأخ بصورة دائمة. ولذلك فهي في الحلم تجدد الحرب وذلك من أجل التخلص من أخيها.

التأويل والتَّكْرُ:

تفسير الحلم على الطريقة الفرويدية أشبه بقراءة الخطوط الهيروغليفية. ففي الأمثلة التي سقناها حتى هذه اللحظة يبدو لنا أنه لمن السهولة بمكان أن نقرأ المحتوى الكامن للحلم وفقا لصورة المحتوى الظاهر المعلن. أما في الأحلام المعقدة فيأخذ المضمون المعلن صبغة تنكُّر بعيدة المدى وصورة مزيفه للمضمون اللاشعوري، وذلك يتطلب طاقة كبيرة جدا من أجل الوصول إلى تفسيرات العمليات

السائدة في هذا المستوى. ويصف التحليل النفسي هذه العمليات بمفاهيم مثل التكثيف، Condensation والإزاحة Displacement والترميز Symbolisation والدرامية Dramatisation، وتأخذ هذه المفاهيم صيغة عمليات لاشعورية خاصة بالنشاطات اللاشعورية، وهي توجد في أصل بنية المظاهر المرصية العصبية، هذا ويمكن للأحلام أن تضع هذه العمليات في دائرة الوضوح. يفوق المضمون الخفي للحلم مظهره من حيث الغنى. وبالتالي فإن المحلل لا يستطيع أبدا أن يستنفذ الصعوبات التي توجد داخل الحلم. لقد أدرك بينيه Binet إلى أي حدّ يكون التفكير عن طريق الصور محدودا بالقياس إلى التفكير الذي يعتمد على المفاهيم، حيث يقول عبارته المشهورة: *يفكر المرء جيدا فيما بعد الصورة*. ويمكن لهذه المقولة أن توظف في مجال الأحلام، فهي تشير إلى غزارة المعطيات الرمزية وذلك بالقياس إلى الصور الحلمية الخام: فالحلم المعلن هو ترجمة مختصرة للمحتوى اللاشعوري. وهنا يستخدم فرويد مفهوم التحدّد التضافري "Surdetermination" (تحدد سلوك ما بدوافع مختلفة) ليشير إلى طاقة المادة الحلمية والتي يمكنها أن تترجم عدة عناصر خفية وأن تجسد موضوعات لاشعورية متعددة.

التكثيف Condensation

ويمكن لهذا النموذج الحلمى المأخوذ من فرانك Frank أن يكون مثلا جيدا لعملية التكثيف: حلمت سيدة أنها كانت تتنزه مع صديقتها في الشارع وإذ بها تتوقف أمام واجهة لمشاهدة القبعات المعروضة ثم تدخل وتشتري قبعة سوداء. أكدت السيدة لمحللها أنه سبق لها أن شاهدت هذه القبعات واقعيًا ولكنها لم تشتري أيًا منها وكان زوجها في هذا اليوم يعاني من مرض وكانت قلقة عليه وأثناءها قدمت صديقتها تبحث عنها وكانت راغبة حقا في الترويح عن نفسها عبر نزهة قصيرة. وأثناء النزهة جرى الحديث عن رجل كانت تعرفه قبل زواجها وكانت تحبه جدا، لقد بدا لها أنه لمن المستحيل

بمكان أن تفكر بالزواج منه الآن وهو رجل ميسور. أما فيما يتعلق بالقبعة لقد أعلنت الحاملة أنها كانت فعلا ترغب بشراء واحدة، ولكن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الحالة المادية المتردية لزوجها. إن شراء القبعة السوداء يشكل هنا مفتاح الحلم: ف شراء قبعة سوداء تستعمل أثناء المآتم كان قد حدد بتأثير رغبة ثلاثية : موت الزوج، الرغبة في الزواج من الرجل الذي تحبه، وأخيرا الرغبة في الحصول على المال. وهذا يعني أن صورة القبعة كانت تحديدا متضافرا لعوامل مختلفة .Surdétermination

تستند عملية التكثيف إلى عنصرين أساسيين حيث يتبدى المضمون المستتر داخل الحلم الظاهر. ويشبه هذا الواقع حال شخصين توجد لديهما مشاعر متشابهة (غيره، سوء نية) هذه المشاعر تتبدى في صورة واحدة مركبة تبدو في الحلم. وهذا يعني أن التكثيف يؤدي إلى تمرير مجموعة من الميول بعيدا عن الرقابة الشعورية وذلك عندما يتم ترجمة هذه الميول إلى صور هي بالضرورة نتاج لنزعات أخرى.

الإزاحة : Déplacement

تحدث هذه العمليات عندما يتم إزاحة الموضوع الخاص بنزعة ما إلى موضوع آخر. وتلك هي أهم عملية تهيمن على مجال الدينامية اللاشعورية. تسمح هذه العملية لبعض العناصر المكبوتة أن تتحول فعاليتها إلى صيغة جديدة أكثر قدرة على التكيف. ويشمل إزاحة الرغبات والمرفوضات (أشكال المعاناة التي ترتبط بردود الأفعال الخاصة بعقدة الإحساس بالذنب) وغالبا ما تشكل هذه العملية الأساس الحقيقي للتوازن النفسي عند الأفراد.

ويستند فرويد إلى صورة هزلية لرسم الملامح العامة لعملية الإزاحة المستخدمة من قبل الوعي اليقظ: اتهم بيطار القرية (حذاء الخيول) بجريمة الخيانة الكبرى، وبما أنه لا يوجد بيطار آخر في القرية قررت المحكمة إعدام واحد من الخياطين الثلاثة في القرية.

هذا ويمكن لعملية الإزاحة أن تأخذ موضوعا جديدا كما في المثال السابق أو أن تأخذ اتجاهها مجانسا. وتلك هي حالة الصياد الذي كان يصطاد الطرائد الكبرى ويتأثر بعض الظروف اتجه إلى صيد الحجل. ويعني هذا أن نزعته قد تحولت إلى موضوع جديد، وأن هناك ظروفًا جديدة مثل الزواج والصحة أو المرض منعتة من ممارسة نشاطه المعهود. فالرغبة الأولية قد تستبدل برغبة أخرى مجانسة لها. ويمكن ملاحظة الأمر نفسه في مستوى الرهابات العصابية ولا سيما رهاب الخوف من الحيوانات الذي يتعرض لعملية إزاحة فيحل حيوان محل آخر بوصفه موضوعا للرهاب.

ويلاحظ على مستوى الحلم، والميول اللاشعورية، أن التحويل يلعب دورا كبيرا في مخادعة الرقابة الشعورية. إذ يمكن لأشياء غير معنية أن ترهب صاحب الحلم وأن تثير فيه مخاوف حقيقية وذلك لأنها استبدلت بموضوعات أخرى قادرة على بث الخوف والقلق. ففي الحلم الذي أشرنا إليه سابقا والخاص بعملية خنق الكلب الأبيض نلاحظ أن الحقد الذي تكّنه السلفه تجاه سلفتها قد أخذ موضوعا آخر وهو الكلب الذي لا يجانس الموضوع الأساسي إلا في مستوى التداعي. ويمكن في هذا السياق أن يعزى لعملية التحويل نزعة الحالم إلى إضفاء اهتماماته وإسقاطها على الآخرين⁽²⁾.

2 هذه النزعة الإسقاطية التي نسقط فيها على الآخرين أفكارنا واهتماماتنا عملية لاشعورية وهي هامة إلى درجة أنه يجب إعطائها تسمية خاصة. حيث يطلق عليها آلية الإسقاط *Mécanisme de projection* وهي لا تتدخل من أجل تكوين الحلم فحسب بل في تشكيل الأعراض العصابية ويمكنها أن تفسر أيضا بعض سماتها. فالمضطهد أو المعذب يسقط على الآخرين لومه وذلك بطريقة لاشعورية. وفي حقيقة الأمر ليس الآخرون هم الذين يعذبون بل هو يعذب نفسه في الواقع .

ويتم هذا الأمر في صيغة معكوسة تماما بمضمونها الكامن داخل الحلم الظاهر المعلن الخ... ومن هذا المنطلق فإن تفسير الأحلام يقوم في جانب كبير فيه على أساس إدراك الغايات الحقيقية وإيجاد علاقات التحويل وتحليل التكثيف وذلك لأن كلاهما التكثيف والتحويل يشكلان العملية التي تسهم بالدرجة الأولى في بناء التشوهات واللاتماسك الذي يتبدى في الأحلام.

الدراماتيّة Dramatisation :

يشير مفهوم الدراماتيّة إلى حالة يعبر فيها المضمون الظاهر للأحلام عن وضعية أو فعل أو أفكار مجردة تتطلب من أجل أن تدخل في الحلم أن تتحول إلى صور في صورة دراما أو في صورة شاعرية. فالتملك على سبيل المثال يتجسد في حالة فيزيائية كأن يجلس المرء على شيء ما ويسيطر عليه. قد يقول واحد من الناس لنفسه "إن النضال من أجل هذه الحياة لا يستحق كل هذا العناء" وعند المساء يرى هذا الشخص في حلمه : *خنفساء تتسلق شباك النافذة وعندما تصل إلى أعلى نقطة فيه تسقط ثم تعاود الصعود*. ومثال ذلك أن أحد الكتاب يعتقد أنه يجب عليه أن يصحح بعض العبارات في مقالة له وفي المساء يحلم أنه *يصقل قطعة من الخشب*.

تمارس الدراما تأثيرا اصطفايا في المواد المستخدمة داخل بنية الحلم الظاهر. وهي تخضع لتحديات صريحة، إذ لا يمكن التعبير عن كل شيء من خلال الصور. وبالتالي فإن الطريقة التي يعبر فيها عن العلاقات المنطقية داخل الحلم تتغير مع تغير الأفراد، وأحيانا تبدو في صورة عملية تنطوي على عدة صور في آن واحد حيث تتجلى العلاقات السببية في تعاقب هذه العناصر نفسها. وهنا يجب أن تتوافر الحكمة الكبيرة من أجل تفسير كل هذه العلاقات السببية بما فيها من تعارضات وتناقضات.

رمزية الأحلام Symbolisme des rêves:

الرمز شيء أو تصور يأخذ مكان شيء أو تصور آخر بوصفه مشابها له أو لأنه يرتبط به بعلاقة ما، وهو في ذلك يقدم دلالة ليست له في الأصل. ولكن توجد في أغلب الحالات روابط محدودة تربط الرمز بالرموز إليه. على سبيل المثال : حفنة من تراب الوطن تمثل بالنسبة للمغترب رمز الوطن البعيد. لقد بينت تجارب المحللين أن صور الأحلام تمثل عددا كبيرا من الرموز الخاصة بالصور الكامنة واستطاعوا من خلال هذه التجارب تحديد مجموعة من الرموز التي تشير إلى عدد كبير من الصور على نحو منتظم. وتشكل هذه الرمزية أيضا وسيلة لاشعورية من أجل التناكر وتجاوز حدود الرقابة الشعورية.

وهناك عدد من الرموز النموذجية، حيث تتجلى السلطة الأبوية أو الأمومية غالبا في رمزية صورة ملك أو أمير. ويمكن للنظام الرمزي للأب أن يأخذ أشكالا متعددة مثل : ملك، أو رئيس. وقد يأخذ صور حيوانات مقتدرة كاسره مثل الأسد والصقر والثور. فالحلم الذي يهاجمنا فيه صقر يشير إلى هيمنة أبوية وهو يرمز إلى عنصر القهر الذي يمارسه الأب، كما يمكنه أن يمثل الرغبات الأوديبية، ولكن غالبا ما يأخذ الأب المخيف صورة ثور هائج. وهناك أحلام كثيرة من هذا النوع وذلك بالنسبة للأشخاص الذين يشعرون بمكانتهم الدونية تجاه آبائهم.

تنظر المرأة إلى الذكورة في تجلياتها العدوانية حيث تأخذ رمزية الأدوات القاطعة والحادة. أما الأنوثة فتأخذ رمزية سلبية عند الذكور إذ غالبا ما تأخذ صورة مادة مثقوبة أو قناة أو حفرة أو كهف أو قارب، وقد يرمز لها بصورة العنكبوت الذي يمثل الأم المخيفة التي تسجن طفلها داخل حلقات سيطرتها.

هذا ويرمز إلى الولادة وبشكل منتظم بانبثاق الماء، حيث يتم الغوص في الماء أو الخروج منه. وهذا يشير إلى حمل أو ولادة أما الموت فيرمز له بالرحيل.

لا يوجد في نيتنا أن نذكر جمع الرموز التي يشير إليها فرويد في مجال علم الأحلام *Science des rêves*. ولكن لا بد في هذا السياق من الإشارة إلى نموذجين من الرموز وهما جديرين بالملاحظة: فالتصورات اللاشعورية المحددة يمكن أن تترجم وحسب الحالة إلى صور رمزية مختلفة جدا هذا من جهة. وهناك حرية واسعة جدا في مجال رمزية الحلم إذ توجد رموز لا حصر لها يمكنها أن تشير إلى شيء واحد على سبيل المثال يرمز للأب برموز مثل الملك والأسد والصقر والثور وهذه الرموز تشكل ما يسمى بمنظومة الرموز الأبوية. وعلى خلاف ذلك يمكن لرمز واحد أن يشير إلى منظومة من الدلالات والتي يمكنها أن تتوافق مع عناصر لاشعورية ذات أحوال مختلفة فالقارب يمكن أن يشير إلى مهد الطفولة أو إلى الطبيعة الأنثوية.

إن تحليل الرموز وتفسيرها أمر يتطلب أناة وصبرا: فالرمز المنعزل لا يمكنه أن يشير إلى أي مفتاح للدخول إلى دهاليز اللاشعور. فالمنهج الرمزي لا يشابه في أية حال من الأحوال منهج التداعي. يقول فرويد: "إن التقنية التي تستند إلى معرفة الرموز لا يمكنها أن تحل محل هذه التي تركز إلى التداعي ولا يمكن أن تقاس بها. فهي تتكامل مع الأخيرة وتزودها بمعطيات هامة". تشير هذه الخلاصات بما فيه الكفاية إلى تعقيد العلاقات القائمة بين الشعور واللاشعور في دائرة الحلم. فالحلم، من وجهة نظر، ليس شيئا آخر سوى نتاج عمل يهدف إلى فعل التكثيف والإحالة والدراما والتميز، وذلك دون أن نتوغل في إحصاء الفعاليات الجانبية والتي تعمل على توحيد المعطيات المختلفة في كل متكامل داخل الحلم والتي تعمل على تنظيم المواد الحلمية داخل نسق لا يمكن فهمه بسهولة. هذا ويمكن القول بصورة أخرى أن الحلم هو عمل بنائي يعبر عن الأفكار الكامنة في مجاهل اللاشعور.

ويمكن للرغبات العاطفية أن تجد ترجمة لها داخل المضمون المعلن للحلم عبر صور ورموز وكيفيات مناقضة تماما لمبدأ تحقيق هذه الرغبات. فعمليات الحلم تجعل المضمون الخفي للحلم غير مفهوم ومقنع بشكل كامل، ومع ذلك فإن هذه العمليات تكشف عن الدلالة الحقيقية وفقا لمبدأ التداعي. يصف أحد المحللين ثلاثة أشكال من الأحلام المختلفة الناجمة عن رنين منبه الصباح. في المرة الأولى شاهد المحلل نفسه في الحلم عائدا من إحدى الكنائس حيث يشاهد قارع الأجراس يصعد إلى جرس الكنيسة ويرنه. وفي الحلم الثاني كان في الشتاء حيث كان يسير على زلاجة تصدر رنيننا وتجلجل، وفي الحلم الأخير يشاهد عاملة المطبخ تأتي إلى صالة الطعام وعلى الرغم من تحذيراته لها تركت الصحون تسقط على الأرض. يسجل فرويد ملاحظاته حول هذه المسألة: الحالم لا يدرك منبه الإيقاظ وهذا لا يشكّل عنصرا من عناصر تفسير الحلم فهو يستبدل الضجة التي يصدرها المنبه بضجة أخرى وهو يفسر في كل مرة الحدث بطريقة مختلفة لماذا؟ يقال إنما يحدث في هذه الحالات يحدث بحكم المصادفة الاعتباطية. ولكن تفسير الحلم على نحو موضوعي يقتضي منا أن نعرف لماذا يختار الحلم هذا الصوت دون الأصوات الأخرى وذلك ضروري من أجل أن نفهم الإثارة الحلمية التي يسببها المنبه.

ترجمة هذه المقالة عن :

Jean Claude Filoux : l'Inconscient , P.U.F, Que sais-je ? P.U.F .Paris .1984.